تحليل الخطاب القرآني
في ضوء لسانيات النص
دراسة تطبيقية في سورة البقرة

الدكتور بن يحي طاهر ناعوس

مقدمة

يعرض هذا البحث لتطبيق آليات وقواعد من لسانيات النص في تحليل الخطاب القرآني من خلال علماء القرآن و بلاغييه ،بهدف تبيان أسرار إعجاز البناء النصي للقرآن الكريم ؛و إخراج المعرفة اللغوية من إطارها النظري إلى ميدان التطبيق على النص القرآني المبهر و المعجز في بنائه .

و مما هو معلوم بالضرورة ؛بأن النص القرآني أولى النصوص بالعناية و الاهتمام،و هذا باب كبير من أبواب العلم ينبغي أن تصرف إليه العناية ، ويبلغ في ذلك العلماء الغاية ،و في ذلك قال الحافظ أبو فرج ابن الجوزي :"لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم كان الفهم لمعانيه أوفي الفهوم؛لأن شرف العلم بشرف المعلوم"[١] .

---

[١] -زاد المسير في علم التفسير،لابن الجوزي، تحقيق أحمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٢م.

و قد بدأ يظهر في ساحة المناهج مقاربات نصية حديثة تقوم على التماس مواطن الانسجام و التماسك في بناء النص القرآني و البحث عن كل عناصر التساند في البنية اللفظية و المضمون الدلالي و المقاصد الشرعية ن التي توصل إلى الفهم السليم للنص القرآني.

و مما لا يخفى على أي دارس، أن الدرس اللساني عرف تحولات كبرى خلال فترة الستينات، والدافع الكبير لهذه التحولات تساؤل عن حدود البحث اللساني وانحصاره في الجملة، مما أدى إلى بروز ما يسمى بلسانيات النص(Linguistique Textuelle).

وهو علم ناشئ، وحقل معرفي جديد، تكوّن بالتدريج في السبعينات من القرن العشرين، وبرز بديلا نقديا لنظرية الأدب الكلاسيكية التي توارت في فكر الحداثة، وما بعد الحداثة، وراح هذا العلم الوليد يطوّر من مناهجه ومقولاته حتى غدا أهم وافد على ساحة الدراسات اللسانية المعاصرة، وقد نشأ على أنقاض علوم سابقة له كلسانيات الجملة واللسانيات البنيوية والأسلوبية، ثم انطلق من معطياتها، وأسس عليها مقولات جديدة، وهو قريب جدا من صنوه تحليل الخطاب، غير أن هذا الفرع الأخير يقوم على أساس التحليل البنيوي، أما فرع لسانيات النص، حتى وإن استثمر جميع النظريات اللسانية السابقة عليه، فهو يقوم في الأعم الأغلب على أساس التحليل النصي، وأهم ملمح في لسانيات النص أنه غني متداخل الاختصاصات، يشكل محور ارتكاز عدة علوم، ويتأثر دون شك بالدوافع، ووجهات النظر، والمناهج والأدوات، والمقولات التي تقوم عليها هذه العلوم.

حددت اللسانيات المعاصرة جغرافية الخطاب عند حدود الجملة، حيث حظيت هذه الأخيرة بالاهتمام والدرس، بوصفها وحدة تتوافر على شرط النظام، وهي غير قابلة للتجزئة، وإذا أمعنا النظر في ماهية الخطاب على أنه ملفوظ يشكل وحدة جوهرية خاضعة للتأمل، فإننا نجده ليس إلا سلسلة من الجمل المتتابعة التي تصوغ ماهيته في النهاية.

وهنا ظهر مأزق اللسانيات أو محدوديتها بتعبير أصح في معالجة إشكالية الخطاب، لأنها حصرته في نطاق الجملة التي يعرفها أندريه مارتيني (**André Martinet**) بأنها أصغر مقطع ممثل بصورة كلية وتامة للخطاب. غير أن هذا لا يفضي إلى عجز الدراسات اللسانية

في عدم قدرتها على معالجة قضايا أكبر من الجملة، وبالتالي عدم عجزها عن تحليل الخطاب. فهناك تباين في تحديد بنية الظاهرة اللغوية. فعلماء اللغة يعرفون الكلمة بأنها وحدة في جملة تحدد معالم كل منها بإمكانية الوقوف عندها، والجملة تتشكل من مجموع الوحدات التي يصح أن يقف بينها (الكلمات) بالإضافة إلى درجة الصوت والتنغيم والمفصل، ونحو ذلك مما يدخل في إيضاح المعنى.

و نحن نعلم ؛أنه لم الاهتمام في تحليل النص محصورا في البحث في الأصوات و المفردات المعجمية و التراكيب و الجمل ،ولكنه جاوز ذلك إلى اقتحام مستوى أكبر هو البنية العامة للنص،و تكمن أهمية منهج تحليل هذا المستوى الأكبر،في أنه يُقدم معايير العلمية و الموضوعية في الدراسة ؛لأنه ينبثق من الموضوع المدروس ؛و هذا لا يتوفر إلا إذا كان المنهج نفسه نصيا،أي إذا كان المنهج من جنس الموضوع و من مادته ،و في ذلك نوع من التفاعل المعرفي بين المنهج و النص .

تطرح هذه الدراسة جملة من الأسئلة المنهجية والمعرفية، تتمحور حول تحليل الخطاب وسر تغير آليات تحليل الخطاب عبر العصور الأدبية المختلفة؟

وعلى رأس هذه الأسئلة السؤال التالي: كيف يتم تحليل الخطاب القرآني من منظور لسانيات النص؟ و كيف يمكن تطبيق ذلك على النص القرآني؟

حول المصطلحات :

كما هو معلوم فإن جل الدراسات النقدية و التفسيرية السابقة للسانيات النص كانت تتعامل مع النص بالنظر إلى الجملة باعتبارها العتبة الاساس له،إلا إن لسانيات النص تعاملت مع النص باعتباره كلا متكاملا.

تبرزُ أهمية هذا المدخل في كون أنَّ العلاقةَ بين لسانيات الجملة ولسانيات النص تشعبت فيها الآراء وتنوعت، ولهذا سنحاول الوقوف على رأي جامع نعتمده في الدراسة،

وهذا أمر يفرض علينا العرض الموجز لأهم تعريفات بعض المصطلحات، التي نرى ضرورة عرضها في بداية هذه الدراسة لنستقر على تعريف واحد، لكل مصطلح، نعتمده في هذا الدراسة.

الجملة هي أول مصطلح نبدأ به، حيث جاء في(مقاييس اللغة) "الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما تجمُّع وعِظَم الخَلْق، والآخر حُسْنٌ. فالأوّل قولك أجْمَلْتُ الشّيءَ، وهذه جُمْلة الشّيء.

وأجمَلْتُه حصّلته"[٢]. وقد ورد لفظ الجملة في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً"[٣] للدلالة على الجمع.

ومعنى الجملة لغة، في كل ما ورد، لا يخرج عن كونها تدل على جمع الأشياء عن تفرقها، وأنها جماعة كل شيء. ويتفق ابن هشام (٧٦١هـ) مع ابن الحاجب(٦٤٦هـ) في ذلك ويقول: "الكلام هو القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد: ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله، كقام زيد، والمبتدأ وخبره: كزيد قائم، وما كان بمنزلة أحدهما. وبهذا يظهر لك أنهما ليسا بمترادفين كما توهم كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: ويسمى: جملة. والصواب: أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمعهم يقولون: جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيدا، فليس بكلام "[٤].

وبعدما عرفنا الجملة نذكر فيما يلي تعريفات للنص، وللوقوف على معاني كلمة (نص) فإننا سنتتبعها في المعاجم العربية، قديمها وحديثها، فقد أورد الفيروزآبادي في مادة (نصص) قوله: "(نص) الحديث رفعه، وناقته استخرج أقصى ما عندها من السير، والشيء حركه، ومنه فلان يَنصُّ أنفه غضباً وهو نصاص الأنف، والمتاع: جعل بعضه فوق بعض، وفلاناً:

---

[٢]– معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، البابي الحلبي، مصر ١٩٦٩م، مادة (جمله).

[٣]–سورة الفرقان/٣٢.

[٤]– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: أبو محمّد جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري: طبع دار الشام للتراث، بيروت، د. ت.،ص ٤٩٠.

استقصى مسألته عن الشيء، والعروس أقعدها على المنصة بالكسر، وهي ما ترفع عليه فانتصت، والشيء أظهره، والشواء ينص نصيصاً: صوّتَ على النار، والقدر غلت، والمنصة بالفتح الجَمَلَة من نصّ المتاع، والنص الإسناد إلى الرئيس الأكبر والترقيات والتعيين على شيء ما، وسير نُصٌّ ونصيص جدٌّ رفيع، وإذا بلغ النساء نص الحقاق فالعصبة أولى:أي بلغن الغاية التي عقلن فيها، أو قدرن على الحقاق وهو الخصام أو حوق فيهن فقال كل من الأولياء أنا أحق، أو استعارة حقاق الإبل: أي انتهى صغرهن، ونصيص القوم: عددهم، والنّصّة: العصفورة بالضم الخصلة من الشعر، أو الشعر الذي يقع على وجهها من مقدم رأسها، وحية نصناص أي كثيرة الحركة ونصص غريمه، وناصه:استقصى عليه وناقشه، وانتصب انقبض، وانتصب ارتفع، ونصنصه: حركه وقلقله والبعير أثبتت ركبتيه في الأرض وتحرك للنهوض"[٥].

بين النص والجملة:

استنادا على التعريفات السابقة، فإنّ النص والجُملة يدخلان في إطار ثنائيّات ضدّيّة: فالجملة وحدة نظرية نظاميّة، إطارها اللّغة، وتنطلق من قدرة لغويّة، ويُمكن لنا أن نعرّفها" بأنّها عبارة عن فكرةٍ تامّة، أو تتابع من عناصر القول ينتهي بسكتة"[٦].

وأمّا النّصّ فهو وحدة إجرائية استعمالية، إطارها الكلام، وتنطلق من إنجاز لغوي أو قدرة تواصلية، وهو أيضا" الصّيغة المنطوقة أو المكتوبة التي صدرت عن المتكلّم أو المؤلّف في موقفٍ ما، قاصداً دلالةً ما وهذه الصيغة قد تكون لفظةً، أو إشارةً، أو جملةً، أو متتاليات من الجمل المترابطة"[٧].

بين الخطاب والنّصّ.

---

[٥]– القاموس المحيط: الفيروز آبادي، ج١، مادة (نص)، ص ٨٥٨، المصدر السابق.

[٦]–نحو النّص اتجاه جديد في الدرس النّحوي: د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م /١٧

[٧]–التماسك النّصي في الحديث الشريف: د. عبدالعزيز فتح الله عبد الباري،
http://www.alukah.net/Sharia/1002/8019/

بعد حصر أهم تعاريف الجملة والنص وعلاقاتهما سأذكر فيما يلي علاقة النص بالخطاب، لأن حديثنا في هذا البحث سيركز على تحليل الخطاب إن على المستوى النظري أو المستوى التطبيقي، وهذا لدرء اللبس ،في هذه الدراسة على الأقل، بين المصطلحين.

إذا كان من اليسيرِ تحديدُ مَفهومِ الجملة بشيء من الدّقّة، نظراً لِما تراكم من أدبيّاتٍ وكتاباتٍ في نحو الجملة قديما، وفي لسانيات الجملة والتّركيبِ حديثاً.

فإنّ مفهومَ الخطابِ لم يحظَ، على كثرة التّداول، بتعريفٍ قارٍّ، ويزدادُ الأمر غموضاً عندما يتعاقبُ في الاستعمالِ مصطلحانِ اثنانِ هما الخطابُ **(Discours)** والنّص**(Texte)** ، وكأنهما مصطلحانِ مُترادِفانِ.

وسأبين، في هذا الإطار، أهم تعريفاته، ففي الكافي لمحمد الباشا، الخطاب: "مصدر خاطب: المواجهة بالكلام، ويقابلها الجواب - :الرسالة. والخطابة مصدر خطب: عمل الخطيب وحرفته. والخُطَب: مصدر خَطَب: الحال والشأن. " قال فما خطبكم أيها المرسلون"[8] الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه. (ج) خطوب. الخطبة: مصدر خَطَبَ: ما يخطب به من الكلام"[9].

ونجد في معجم المصطلحات العربية الخطاب "الرسالة **Letter**، نص مكتوب ينقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن عادة أنباء لا تخصُّ سواهما، ثم انتقل مفهوم الرسالة من مجرد كتابات شخصية إلى جنس أدبي قريب من المقال في الآداب الغربية- سواء أكتب نظماً أو نثراً – أو من المقامة في الأدب العربي"[10].

---

[8]–سورة الذاريات/ ٣١، سورة الحجر/٥٧.

[9]–الكافي: معجم عربي حديث: الباشا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤١٤.

[10]–معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة، وكامل المهندس، المصدر السابق، ص ٩٠.

وفي المعجم الوسيط: "(خاطبه) مخاطبة، وخطاباً: كالمه وحادثه، وخاطبه: وجه إليه كلاماً، والخطاب الكلام وفي القرآن الكريم:" فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب"[١١].

قال بعض المفسرين في قوله تعالى:" وفصل الخطاب"؛ قال: هو أن يحكم بالبينة أو اليمين، وقيل: معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده، وقيل: فصل الخطاب أما بعد، وداود عليه السلام، أول من قال: أما بعد؛ وقيل فصل الخطاب الفقه في القضاء..."[١٢].

وفي القاموس المحيط: "خ.ط.ب: (الخطب) الشأن. والأمر صغر أو عظم ج خطوب (...)، والخطاب – كشداد: المتصرف في الخطبة، واختطبوه: دعوه إلى تزويج صاحبتهم. وخطب على المنبر خطابه بالفتح، وخطبة بالضم، وذلك الكلام خطبة أيضا، أو هي الكلام المنثور المسجع ونحوه، ورجل خطيب: حسن الخطبة بالضم..."[١٣].

أما في المعاجم الأجنبية فإن الخطاب "مصطلح ألسني حديث يعني في الفرنسية **Discours** وفي الإنجليزية **Discourse**، وتعني حديث، محاضرة، خطاب، خاطب، حادث، حاضر، ألقى محاضرة، وتحدث إلى"[١٤].

ونستخلص من هذا التعريف بأن الخطاب يشمل المنطوق والمكتوب، وفي هذا تلاقٍ كبير، من حيث المعنى، بين النص والخطاب.

وفي معجم المصطلحات الأدبية الحديثة لـ (محمد عناني): "الخطاب ومعناه" اللغة المستخدمة (أو استخدام اللغة) **Language in use** لا اللغة باعتبارها نظاماً مجرداً. و يقول مايكل ستابز (**Stubbs**) تعليقاً على استخدام مصطلحي النص والخطاب **Text and**

---

[١١]–المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة مصر، ج١، ١٩٦٠، مادة (خطب)، الآية من سورة ص:٢٣.

[١٢] –لسان العرب المحيط: ابن منظور، م ١، الخاء، ص ص ٨٥٥–٨٥٦، المصدر السابق.

[١٣]– ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة: الطاهر أحمد الزاوي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، م ٢، حرف الخاء، ص: ٧٥–٧٦.

[١٤]–قاموس الياس العصري: الياس انطون الياس، دار الجليل، بيروت،١٩٧٢، ص١٩١.

discourse في كتابه " تحليل الخطاب" (١٩٨٣) إن ذلك كثيراً ما يتسم بالغموض ويبعث على البلبلة. وهو يقول إن الخطاب كثيراً ما يوحي بأنه أطول وبأنه قد يتضمن أو لا يتضمن التفاعل "[١٥].

ومن هنا، وجدنا بعض اللغويين يعتبرون أن الكلام الذي يقال "في حلقة دراسية **Seminar** يمثل كله خطاباً، بمعنى عملية تبادل للأفكار تكتسي ثوباً لفظياً، على حين يعتبر آخرون أن بياناً واحداً في الحلقة يعتبر خطاباً، طال أو قصر. كما يختلف اللغويون في إمكان " جمع " الخطاب، فبعضهم يقول إنه يجمع (خطابات) والبعض الآخر يقول إنه يجمع وغير قابل للعد والإحصاء، ويذهب فريق ثالث إلى إمكان جمعه في أحوال معينة. فإذا كان الخطاب " يجمع " فسوف تكون المشكلة التالية هي البت فيما يشكل حدود تعريف الخطاب الواحد، ويقول ستابز إن وحدة خطاب محدد يمكن تعريفها من حيث البناء أو الدلالة أو الوظيفة"[١٦].

ويرى (جيرالد برنس**Gerald Prince**) بأن للخطاب معنيين منفصلين في إطار نظرية السرد: الأول هو المستوى التعبيري للرواية لا مستوى المضمون، أي عملية السرد لا موضوعه، والثاني يتضمن التمييز بين الخطاب والقصة **Story** (وبنفنيست **Benvenisite**) يستخدم الخطاب و **histoire** في كتابه بالفرنسية، لأن الخطاب كما يقول ستابز يوحي بعلاقة بين " حالة أو حادثة وبين الموقف **Situation** الذي يوحي فيه لغوياً بهذه الحالة **State** أو الحادثة **Event** أي إن التعريف هنا يستند إلى التفرقة بين الخبر والإخبار به، أو بين الواقعة والإبلاغ عنها، مما يماثل الفرق بين **enonciation** و **enonce**.

---

[١٥]–المصطلحات الأدبية الحديثة: د. محمد عناني، دراسة ومعجم إنجليزي–عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٦، ص٠٩.

[١٦]–معجم علم السرد: جيرالد برنس، المترجم: عابد خزندار، المراجع: محمد بريري، الناشر: المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة – مصرالطبعة: الأولى2003 ، ص٥.

ويفضل بعض كتاب الإنجليزية الاحتفاظ بالصورة الفرنسية للكلمة أي دون حرف الـ(e) الأخير عند استخدام الخطاب بالمعنى الذي استخدمه فيه (بنفنيست**benvenisit)**[17].

فالخطاب على ما سبق، هو بيان كلامي سردي تعبيري عن كل ما يختلج في ذهن المرسل، بل يمثل مجموعة كبيرة من الأقوال أو العبارات والتي نعني بها مساحات لغوية تحكمها قواعد، وهي القواعد التي تخضع للاحتمالات الاستراتيجية. ومن ثم فإن فوكو (**foucault**)إنه في لحظة معينة من تاريخ فرنسا مثلاً سيكون هناك خطاب معين (أي لغة معينة) للطب – ويعني بها هنا مجموعة من القواعد والأعراف والنظم (نظم التوسط **mediation**)التي تحكم أسلوب الحديث عن المرض والعلاج، ومتى يكون ذلك وأين وعلى أيدي من؟ ولكن المشكلة، لا تزال قائمة وهي كيف نضع حدود خطاب معين؟ ويرجع أحد جوانب المشكلة إلى استخدام فوكو لتعبير **Discursive formation** بطريقة توحي بأنه يمكن أن يعني تقريباً ما يعنيه " الخطاب"؛ إذ إن كلمة **discursive** هنا تستعمل صفة من **discourse** لا بمعناها المألوف أي باعتبار صفة من اللف والدوران.[18]

وخلاصة الأمر، فإن مصطلح الخطاب قد تجاذبته اتجاهات متعددة، إلا إننا يمكن أن نستقر على الجمع بين الخطاب والنص من حيث الدلالة.

لأنّ النص ما هو إلا وحدة معقدة من الخطاب، إذ لا يفهم منه مجرد الكتابة فحسب وإنما يفهم منه عملية إنتاج الخطاب في عمل محدد[19].

وبين الخطاب والنص علاقة قوية جداً "فالخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق، وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاقتران في الذاكرة من خلال استعمال النص فإن عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات

---

[17]–ينظر: المصدر نفسه، ص٤٧.

[18]–ينظر حفريات المعرفة: ميشال فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي –المغرب، ط. الثانية ١٩٨٧، ص ٣٧.

[19]–مقالات في الأسلوبية، دراسة: منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٠م، ص ٢٤١.

المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما ... أو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها في إطار ما"[20]

ولهذا كله وغيره، ألفينا "(ديفيد كرستال**David Crystal**) يذكر أن تحليل الخطاب يرتبط بتحليل اللغة المنطوقة. بينما تحليل النص يرتبط بتحليل اللغة المكتوبة، ولكنّه أكد بعد ذلك أن التحيل سواء أكان نصا أم خطابا فإنه يشمل كل الوحدات اللغوية المنطوقة والمكتوبة مع تحديد "الوظيفة التواصلية"[21]..

أنواع الخطاب:

تتعدد أنواع الخطاب العربي وتختلف باختلاف مرجعيتها، ولقد قسمها منذر عياشي إلى ثلاثة أنواع؛ يأتي على رأسها الخطاب القرآني. الذي هو موضوع دراستنا في جانبها التطبيقي، وهو خطاب إلهي، مطلق ولا نهائي في دواله ومدلولاته "ليس كمثله شيء "[22]، كتب الله على نفسه حفظه، قال تعالى: "إنا له لحافظون ".[23]

إن الخطاب القرآني خطاب إلهي، لم يستطع أحد تسميته إلا كما سماه الله عز وجل في كتابه الكريم حيث سماه (الكتاب) متفرد عن غيره من الخطابات وفي كل مستوياته الصوتية، والمعجمية، والتركيبية، والإيقاعية، والتداولية.

أصواته منسجمة متماسكة، ألفاظه واحدة لا تقبل التعدد وتركيباته وإيقاعاته مطلقة ولا نهائية، خطابه متفرد "ليس كمثله شيء" ورغم ذلك فقد أخذت عنه كل الخطابات والأجناس، وليس لأحد أن يأتي ولا بآية من مثله، ولقد تحدى القرآن بذلك قال تعالى:

[20]–النص والخطاب الإجراء: روبرت دى بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨، ص٦.

[21]–علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د.صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٣٥.

[22]–سورة الشورى/ ١١.

[23]–سورة الحجر/ ٩.

"وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إذ كنتم صادقين"[٢٤].

وإن أهم ما يميز الخطاب القرآني هو مرجعيته فالله سبحانه وتعالى هو المرسل، والقرآن كلمة الله نزلت على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كلمته التي تحمل كل صفاته ولا نهائيته وبقائه على خلاف الأنواع الأخرى من الخطابات التي تفرض بعض النظريات المعاصرة مثل موت المرسل بمجرد الانتهاء من إنجاز عمله وخروج عمله إلى النور وتسلمه من قبل المتلقين.

الخطاب القرآني لانهائي الدال والمدلول أو التركيب "خطاب يميل إلى مرجعية ثلاثية فهناك مرجعية الدال، ويكون النص على مثال مرسله. وهناك مرجعية المدلول، ويكون النص فيها على مثال متلقيه. وهناك أخيراً، مرجعية النص نفسه على نفسه ويكون النص فيها دالاً ومدلولاً خالقاً لزمنه الخاص ودائراً مع زمن المتلقين في كل العصور، وسمة القراءة في كل ذلك، أن كل واحدة من هذه المرجعيات تستقل بذاتها وتطلب الأخرى في الوقت ذاته"[٢٥].

الخطاب القرآني خطاب لا يُنطق إلا بلفظه، حيث لا يجوز لقارئه أن يقرأه إلا بلفظ داله، وإن اختلفوا في لغات المدلول، فالخطاب القرآني موجه للناس كافة هادياً ومنيراً، ولكل متلق حاذق الحق في تأويل مدلولاته اللانهائية المستمرة المطلقة المنسجمة مع حاجات الناس في كل زمان ومكان، ولكل الحق في إعادة إنتاج النص الديني معرفياً بالإيمان الحق.

الخطاب القرآني لا يترجم وإنما تشرح مدلولاته بكل اللغات، ولا يستطيع أحد أن ينقله إلى أي لسان آخر كما ترجم الإنجيل والتوراة إلى العربية وغيرها. وإذا كان الأسلوب يعرف أحياناً بأنه الشيء الذي يفقد العبارات عند ترجمتها إلى لغة أخرى، كما يحدث في ترجمة الشعر حيث تقتل روحه وإيقاعه أي خاصيته، أسلوبه بالترجمة، وكذلك فإن القرآن بالترجمة يفقد إعجازه في مستوى من مستوياته، وإن لم يكن بها جميعاً فلم يستطع أحد ترجمة﴿ حتى

---

[٢٤]–سورة البقرة/ ٢٣.

[٢٥]–مقالات في الأسلوبية: منذر عياشي، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

يلج الجمل في سم الخياط﴾[26] أو ﴿طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين﴾[27] وغيرها من الأمثلة مما لا يحصر فلقد كتب الله على نفسه أن يحفظه.

النوع الثاني: ويمكن تسميته "الخطاب الإيصالي" ونماذجه متعددة سياسية، وإرشادية ووعظية وقضائية وإقناعية، واجتماعية، وإعلامية إلى آخره. - يقول د.الجابري: " صنفنا الخطاب ...إلى أربعة أصناف: الخطاب النهضوي وجعلناه يدور حول قضية النهضة عامة والتجديد الفكري والثقافي خاصة، والخطاب السياسي ومحورناه حول "العلمانية" وما يرتبط بها والديمقراطية وإشكاليتها، والخطاب القومي وركزناه حول " التلازم الضروري" — الإشكالي الذي يقيمه الفكر العربي بين الوحدة والاشتراكية من جهة وبينهما وبين تحرير فلسطين من جهة ثانية. ويأتي الخطاب الفلسفي أخيراً ليعود بنا إلى صلب الإشكالية العامة للخطاب العربي الحديث والمعاصر، وإشكالية الأصالة والمعاصرة —"[28].

والنوع الثالث: ويمكن أن "نسميه الخطاب الإبداعي (الشعري) ونماذجه متعددة هي الأخرى، ولكن يتميز عن الأول بأنه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية"[29].

وسنعتمد في هذه الدراسة المصطلحين كمترادفين ،لأنّ الخطاب كان أصلا نصا، والنص لا بد أن يصير خطابا لتحقق فيه خاصية الإعلامية، ولهذا وجدنا كثيرا من الدراسات الحديثة تعتمد المصطلحين بمعنى واحد، كما نجد ذلك عند محمد الخطابي في كتابه (لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب) إذ يقول : "يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا

---

٢٦ -الأعراف:٤٠

٢٧ -الصافات :٦٥.

٢٨-الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية: د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٩٤، ص ١٦.

٢٩-مقالات في الأسلوبية: منذر عياشي، المرجع السابق، ص٢١٥.

في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب/النص، ونحو النص، وعلم النص..."[٣٠] فلم يجعل فارقا بين النص والخطاب في حديثه.

لسانيات النص الماهية و النشأة:

لقد لاقت محاضرات دي سوسير ونظرياته، في بدايات القرن العشرين من النجاح حظا وفيرا، بين كثير من الدارسين وكانت معينا لعدد كبير من المدارس قامت على المبادئ النظرية التي أرسى دي سوسير قواعدها. والأسس المنهجية التي سطر معالمها ووضعها، فقد أصبح غنيا عن التعريف بالنسبة إلى المهتمين باللغة، بأن هذه النظريات مهدت لميلاد علم جديد، لهذا اعتبر كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة **Cours de linguistique – générale)**" الكتاب الأم في ميدان الدراسات اللغوية[٣١].

فقد كان لتلك الأبحاث التي قام بها "دي سوسير" في مجال اللسانيات أثر كبير لتقدم البحث اللغوي وفي تطور مناهج لغوية ونقدية تعنى ببنية النص ذاته وبمعايير بنائه، وكان لتفريقه بين اللغة " **Langue** " والكلام " **Parole** " أثره، كذلك، في تحليل النصوص الأدبية من الداخل، وفي تركيز البحث في بنية العمل ذاته، وكان، أيضا، للحلقة اللغوية في "كونبهاجن"، وحلقة "براغ" اللغوية أثر واضح في توجيه النظر النقدي على علم اللغة والإفادة منه و تطوير النظر للنص [٣٢].

وقد أكدت الدراسات بأن نحو النص ولد من رحم البنيوية الوصفية القائمة على نحو الجملة في أمريكا، ففي الوقت الذي كان أعظم اهتمام لعلم اللغة بالجملة المفردة نشر "زهاريس"[٣٣] " **Z. Harris** " بحثا اكتسب أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات الحديثة يحمل

---

[٣٠]-لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب: د .محمد خطابي، المرجع السابق، ص٥٠.

[٣١]-ينظر: أهم المدارس اللسانية: د. عبد القادر المهيري ومحمد الشاوش، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط٢، ١٩٩٠، ص ٥.

[٣٢]-نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية: د. سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، ١٩٩١، ص ٢٢٥.

[٣٣]-المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

عنوان "تحليل الخطاب ’’ **Analyse de discours** ‘‘ "الذي نشر المرة الأولى سنة ١٩٥٢ في مجلة. **Languages (n° 13 mars 1969)** بهذا كان هاريس ’’ **Z. Harris** ‘‘ أول لساني يعتبر الخطاب موضوعا شرعيا للدرس اللساني، لأنه قدم منهجا لتحليل الخطاب المترابط واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص، والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي.

ومن هنا، أصبح الخطاب بداية من سنة ١٩٥٢م موضوعا للتحليل اللساني وبناء على ذلك تم تكسير القاعدة التي وضعها بلومفيلد(**Bloomfield**)، الذي كان يعتبر" الجملة أكبر وحدة قابلة للدراسة، وأنها هي الموضوع الشرعي الوحيد للسانيات على اعتبار أن الأشكال الأخرى التي تكبرها لا يمكن تحديدها في إطار يمكّن من دراستها على أحسن وجه، وتبيان خصائصها اللغوية والدلالية.

ويعرّف نحو النّصّ في أبسط صور التعريفات بأنّه منهجٌ من مناهج التحليل اللّغوي، يستشرف المعنى الكلّي للنّصّ، ويحلّل الأجزاء والمكوّنات على ضوء النظرة الكلّيّة الشموليّة للنّصّ، فالمعنى يتحدّد من خلال النّصّ لا من خلال الجملة، ويمكن لمحلّل النّصّ تفسير جملةٍ ما بجملة لاحقة لها أو سابقة عليها، من منطلق القول بكلّيّة النّصّ، وقد ارتبط نحو النّصّ منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بتحليل الخطاب، والنظر إلى النّصّ على أنّه بنية كلّيّة لا على أنّه جمل فرعيّة، وقد تطوّر النحو بظهوره من نحو يحلّل الجملة إلى نحو يحلّل النّصّ، فيتعامل معه بوصفه جملاً وسياقات، وظروفاً وفضاءات تتعالق فيها المعاني وتترابط بما قبلها وما بعدها، فهو الأكثر اتصالاً بمجال تحليل النّصّ.[٣٤]

فهو يهدف إلى دراسة الوظيفة الدلاليّة لبعض العناصر النحويّة وربطها بشبكة الدلالة في النّصّ.[٣٥]

---

[٣٤]–نحو النّصّ والتحليل اللغوي: ص١٠.

[٣٥]–نحو النّصّ في ضوء التحليل اللساني للخطاب: ص ٤.

الانسجام والاتساق في سورة البقرة:

في تعريف سورة البقرة:

يجدر بنا منهجيا، في البداية ، التعريف بهذه المدونة الكريمة (سورة البقرة) وتبيان أسباب اختيارها للتطبيق في هذا البحث.

تعتبر البقرة، في النصوص النبوية، سنام القرآن ،فعن ابن مسعود[٣٦]، رضي الله عنه، عن النبي ε قال:" إنَّ لكلِّ شيءٍ سناماً، وسنامُ القرآنِ سورةُ البقرةِ، وإنَّ الشيطانَ إذا سمعَ سورةَ البقرةِ تُقرأُ خرجَ منَ البيتِ الذي يُقرأُ فيهِ سورةُ البقرة"[٣٧].

وسنام كل شيء أعلاه[٣٨]، وسورة البقرة سنام القرآن" إما لطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد، وبه الرفعة الكبيرة"[٣٩].

---

[٣٦]-ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، (٧٤/٣)، والذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء(٤٦١/١)، حقق بإشراف، شعيب الأرناؤوط وأكرم البوشي.عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب(٣٢هـ)، أبو عبد الرحمن الهذلي الإمام الحبر فقيه الأمة، من السابقين الأولين، أول من جهر بالقرآن، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وجميع الغزوات.

[٣٧]-رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن، (٥٦١/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢/٢)، رقم(٣٢٧٧)، وذكره الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٣٥/٢)، حديث رقم(٥٨٨)، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

[٣٨]-لسان العرب :ابن منظور الإفريقي، أبو الفضل جمال الدين بن محمد،مادة (سنم)، (٣٠٦/١٢-٣٠٨) المصدر السابق.

[٣٩]-تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، أبو العلي محمد بن عبد الرحمن: (١٨١/٨)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

ويمكن أن نجمل مراحل نزول سورة البقرة في هذا المخطط:

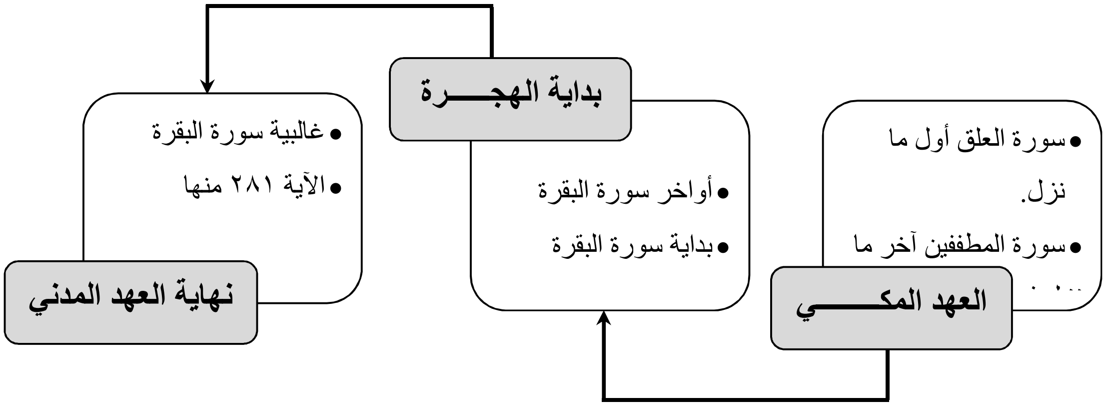

وصفوة القول؛ فإن سورة البقرة هي أول ما نزل بعد الهجرة، واستمر نزولها حتى نهاية العهد المدني، حيث نزلت الآية (٢٨١) منها، والتي هي على الراجح آخر آية في القرآن، كما نزل قبيلها آيات الربا، فيما تقدمت خواتيم السورة سائرها فنزلت قبيل الهجرة، لكن غالب آيات السورة قد نزل في بدايات الهجرة.

فإذا كانت سورة البقرة هي "أول سورة نزل من القرآن في المدينة، وهي أطول السور القرآنية جميعا إذ تستغرق أكثر من جزءين من أجزاء القرآن، وفيها حشد من الموضوعات المتنوعة أكثر مما حوته أية سورة أخرى من سور القرآن"[٤٠].

ويبدو هذا الحشد ، لأول وهلة، مجرد "انتقال من موضوع إلى موضوع بغير نظام ! وذلك الذي يقوله الذين لا يعلمون، من المستشرقين وتلامذتهم "المثقفين" ولكن هذه السورة رغم طولها ذلك، ورغم هذا الحشد المتنوع كله في رباط محكم، بحيث يصبح له، على تنوعه، أهداف واضحة محددة، وشخصية موحدة"[٤١].

---

[٤٠] –دراسات قرآنية: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٢م، ص٢٧٧.

[٤١] –المرجع نفسه، ص٢٧٧.

و يحلو لبعض الباحثين المعاصرين أن ينفوا عن القرآن الكريم ،بصفة عامة، وعن سورة البقرة ،بصفة خاصة،كل مظاهر النصية الموحدة للقرىن الكريم [٤٢]،وأنه ليسنصا منسجما بالمعنى الحديث ن الذي يستلزم درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي،فهم يرون بأن ليس في القرآن نص مترابط و متراص و لا منسجم بل حتى على مستوى السورة الواحدة؛و ذهبوا في ذلك كل مذهب حتى إلى قولهم:بأن القرآن هو مجموعة من المدونات .

و من هنا؛ سنبين ،بتوفيق من الله،مظاهر انسجام و اتساق القرآن من خلال سورة البقرة التي اخترناها نموذجا في هذه الدراسة.

مفهوما الاتساق والانسجام

مفهوم الاتساق:

نستهل تعريف الاتساق بذكر أهم المعاني التي أوردتها المعاجم العربية لهذه الكلمة، ومما جاء في ذلك "وَسَقَ الليلُ واتَّسَقَ؛ وكل ما انضم، فقد اتَّسَق. والطريق يأتَسِقُ؛ ويَتَّسق أَي ينضم؛ حكاه الكسائي. واتَّسَق القمر: استوى.

وفي التنزيل: "فلا أُقسم بالشَّفَق والليل وما وَسَق والقمر إذا اتَّسَق"؛ قال الفراء: وما وسَقَ أَي وما جمع وضم"[٤٣].

---

[٤٢] -ينظر:التحليل اللساني و عالمية القيم الدينية،المصطفى تاج الدين ،مجلة الإحياء،الرابطة المحمدية للعلماء، ع:٣٢-٣٣،رمضان ١٤٣١هـ/أوت ٢٠١٠م،ص:١٦٨_١٨٣.

[٤٣] –لسان العرب: لابن منظور، مادة (وسق)، ج١٢، المصدر السابق، ص١٧٦٢.

ونجد، من الناحية الاصطلاحية، أنه يُقْصد عادة بالاتساق ذلك "التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص /خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته"[٤٤].

ويُفْهم مما سبق، بأن النص إذا اتسم بالاتساق خضعت جمله لعملية بناء منضمة ومترابطة تركيبيا ودلاليا، بحيث كل جملة تؤدي إلى الجملة اللاحقة ويتحقق هذا التعالق بواسطة أدوات ووسائل لغوية.

وبالتالي فإن الاتساق هو الذي يضمن تماسك النص ويمييزه عن اللانص، وتساهم مجموعة، كما سنرى فيما بعد، من الوسائل والأدوات النحوية والدلالية في هذا مما يجعل الاتساق يكون تركيبيا ودلاليا.

وأهم هذه الوسائل والأدوات التي تساهم في جعل النص متسقا شكلا ما يوضحه هذالمخطط:

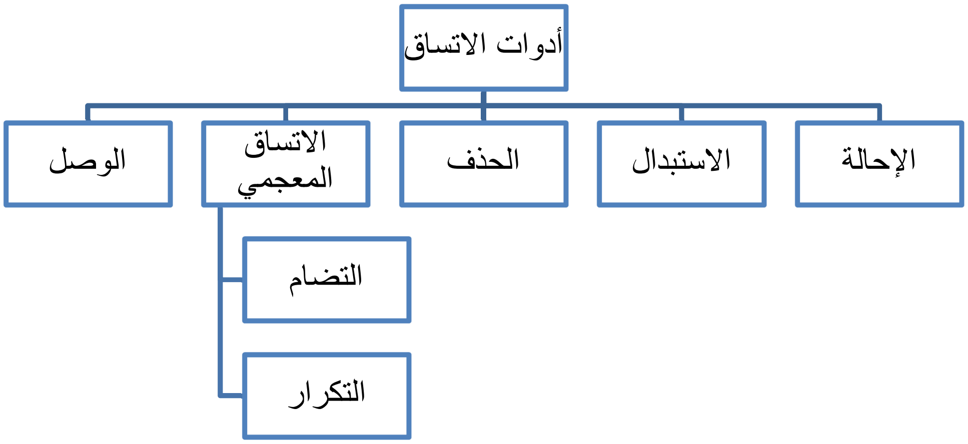

2 – مفهوم الانسجام:

سنقف على أهم معاني الانسجام، قبل الحديث عن وسائل انسجام النص، في اللغة، فقد جاء في لسان العرب "سَجَمَتِ العين الدمع والسحابةُ الماء تَسْجِمُه وتَسْجُمُه سَجْماً

[٤٤]–لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، د.محمد خطابي، المرجع السابق، ص٥٠.

وسُجُوماً وسَجَماناً: وهو قَطَران الدمع وسَيَلانه، قليلاً كان أَو كثيراً، وكذلك الساجِمُ من المطر، والعرب تقول دَمْعٌ ساجِمٌ.

ودمع مَسْجوم: سَجَمَتْه العين سَجْماً، وقد أَسْجَمَه وسَجَّمَه. والسَّجَمُ: الدمع. وأَعْيُنٌ سُجُومٌ: سَواجِمُ؛ قال القطامي يصف الإِبل بكثرة أَلبانها: ذَوارِفُ عَيْنَيْها من الحَفْلِ بالضُّحى، سُجُومٌ كتَنْضاح الشِّنان المشَرَّبِ وكذلك عين سَجُوم وسحاب سَجُوم. وانْسَجَمَ الماءُ والدمع، فهو مُنْسَجِمٌ إِذا انْسَجَمَ أَي انصب"[٤٥].

و جاء في مقاييس اللغة :" السين والجيم والميم أصلٌ واحدٌ، وهو صبُّ الشّيء من الماء والدَّمعِ. يقال سَجَمَت العينُ دَمعَها"[٤٦].

---

[٤٥]–لسان العرب، ابن منظور، مادة (سجم)، ج١، المصدر السابق، ص١٧٦٢-١٧٦٣.

[٤٦] –مقاييس اللغة،ابن فارس،مادة(سجم).

أمّا من الناحية الاصطلاحية، فإن "مفهوم الانسجام يعتبر لصيقا (inhérent) بمفهوم النص ومكونا له، بل إن الانسجام يعادل مفهوم النص ومفهوم النصية".[٤٧]

ومن هنا، فإن الانسجام يتحقق "في التواصل اللغوي حين يستعمل المتكلم بعض الوحدات اللغوية... كوحدة قاعدية للنص (a text base unit) وبواسطة الموضوع (thème) والتوسيعات(the expands) يبدأ في عملية التدرج الخطي في ترتيب متفق للنص ويتمم مقاطع الوحدات»[٤٨].

ويمكن أن نجمل مبادئ الانسجام في المخطط التالي:

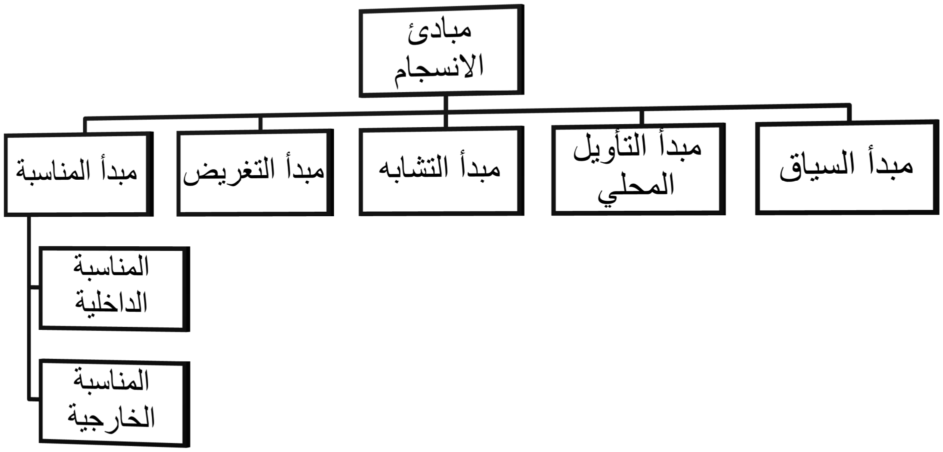

فمن خلال هذه الأدوات، التي سنطبقها في سورة البقرة، ندرك أسرار انسجام النص من عدمه، وفق ما بينه علماء النص.

47 –LUNDQUIST : La cohérence textuelle, P 17.

48 – WERLICH : a text grammar of English, P 30.

الانسجام في سورة البقرة:

مبدأ السياق :

مما أشار إليه علماؤنا القدامى قاعدة ذهبية مضمونها أن أفضل طريقة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن[٤٩]، وتعد هذه الملاحظة، في رأيي، إشارة إلى منهج قويم في علم الدلالة (Sémantique) والذي أصبح يعرف اليوم بـ"المنهج السياقي".

لهذا صرح زعيم المدرسة السياقية فيرث(Firth) بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال "تسييق الوحدة اللغوية"[٥٠]، أي وضعها في سياقات مختلفة، وعليه فإن "دراسة دلالات الكلمات تتطلب تحليلا للأنماط السياقية والطبقات المقامية التي ترد فيها، فمعنى الكلمة يتحدد وفق السياقات التي ترد فيها"[٥١].

ومن هنا، فإن للسياق دورا أساسيا في ترابط النص القرآني وانسجامه، انسجاما يجعل آي القرآن مرتبطا "بعضه ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"[٥٢].

---

[٤٩]–ينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، دار الجيل بيروت، ج٢، ص175

[٥٠] –علم الدلالة: أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص.68

[٥١]–علم الدلالة: أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص68

[٥٢]–إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ضبطه محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط٥، ١٩٥٢ م، ص.٢٧٠.

مبدأ التأويل المحلي:

إذا كان يُقصد به التعامل مع النص من خلال معطيات النص، وفهمه انطلاقا من سياقه الخاص، وتأويله تأويلا داخليا محليا، فإننا لا نستطيع تأويل كلمة البقرة، مثلا، بمنأى عن السياق القصصي الذي جاءت فيه.

فقد وجدنا الماوردي (ت٤٥٠هـ)[٥٣] يبين سر اختيار البقرة للذبح في قوله:" وإنما أَمر، والله أعلم، بذبح البقرة دون غيرها؛ لأنّها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته"[٥٤].

ومن هنا؛ فإنما اختص البقر من "سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله فاختبروا بذلك؛ إذ هذا من الابتلاء وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه"[٥٥].

مبدأ التغريض:

إذا كان الخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرجة لها بداية ونهاية فإن هذا النظام،يعني الخطية والنسقية، يتحكم في تأويل الخطاب بناء على ما يبدأ به المتكلم أو الكاتب سيؤثر في تأويل ما يليه، ولذلك عرف براون و يول التيمة بأنها "نقطة بداية قول ما"[٥٦].

---

[٥٣]–هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب القاضي البصري الشافعي، (ت٤٥٠هـ)، له الأحكام السلطانية، وأدب الدنيا والدين، الحاوي في الفقه، وقانون الوزارة، [طبقات السيوطي، ص٨٣-٨٤، طبقات الأدنروي، ص١١٩-١٢٠].

[٥٤]–النكت والعيون: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، (١/١٣٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، د ط.

[٥٥]–البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الجياني، مطبعة السعادة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٣هـ /١٩٩٢م، (١/٤٠٤).

[56]–brown,G. and George yule. (1983). Discourse Analysis. C.U.P. London, p 126

وهكذا فإن عنوان النص سيؤثر في تأويل النص الذي يليه، ومن هنا فإننا "نفترض أن كل جملة تشكل جزءا من توجيه متدرج متراكم يخبرنا عن كيفية إنشاء تمثيل منسجم"[٥٧].

فهذا هو الغرض العام الذي يجمع الأحكام في السورة يلخصه هذا المخطط:

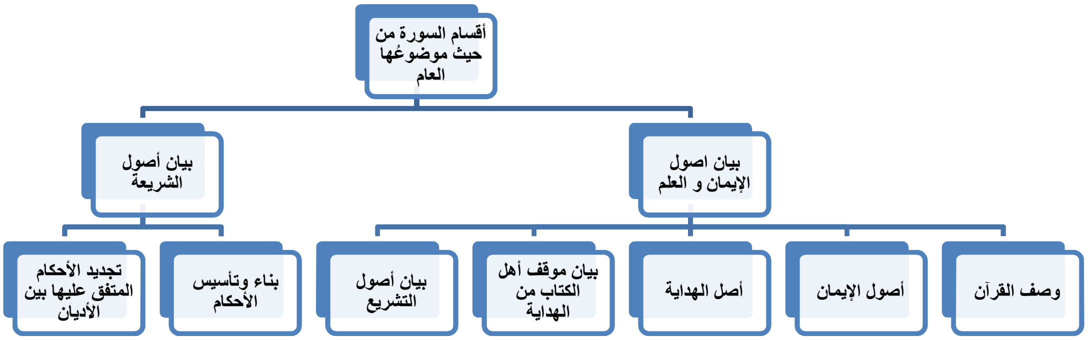

ونخلص مما سبق، إلى أن السورة مهما تعددت قضاياها فهي "كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بأخره،و يترامى بجملته على غرض واحد،كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة"[٥٨].

و هذا ما يوضحه و يلخصه المخطط التالي:

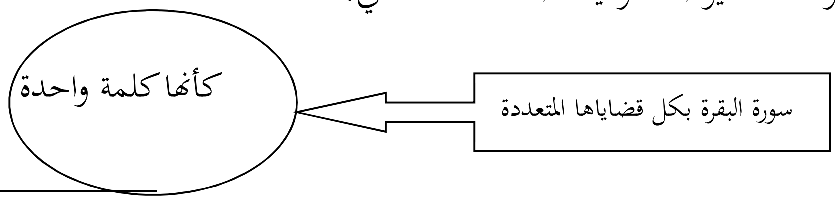

---

[٥٧]–المرجع نفسه، ص١٣٥.

[٥٨]–المرجع نفسه، ص١٣٧.

وإنه لاغنى، استنادا على ما سبق، لمن يريد أن يفهم سر "نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية"[٥٩].

ونخلص مما سبق، إلى أن القرآن متناسق تناسقا عجيبا بين جميع سوره (١١٤ سورة)، مما يجعله يشكل بناء واحدا محكما متراصًّا، لا يستطيع أي إنسان أن يسقط ولو حرفا واحدا منه.

المناسبة ودورها في انسجام النص

١-أوجه التناسب الداخلية في سورة البقرة

مما لا يخفى على أي دارس متمحص، بأن " المناسبات بين سور القرآن الكريم أو بين الآيات في السورة الواحدة من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوّق لنظم القرآن الكريم وبيانه، وغلى معايشة جوّ التنزيل، وكثيرا ما تأتي إلى الذهن المفسر على شاكلة إشراقات غكرية أو روحية"[٦٠].

وهو علم يجعل أجزاء الكلام بعضها "آخذا بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[٦١].

وهذا التوافق نلخصه في هذا المخطط

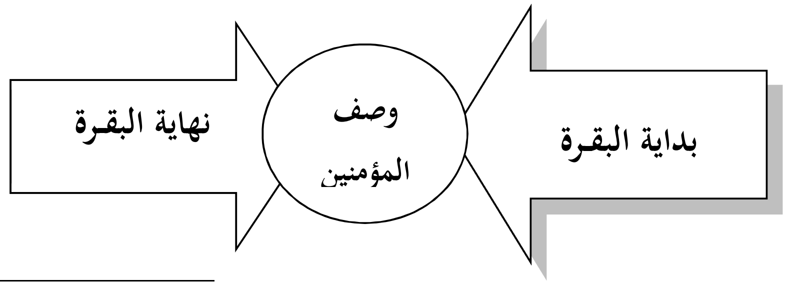

٥٩-المرجع نفسه، ص١٣٧.

٦٠-مباحث في التفسير الموضوعي، أ.د. مصطفى مسلم، المرجع السابق، ص٦١.

٦١-البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، ج١، المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.

فكل القصص، على ما سبق، تصب في فكرة واحدة كما يوضحها هذا المخطط:

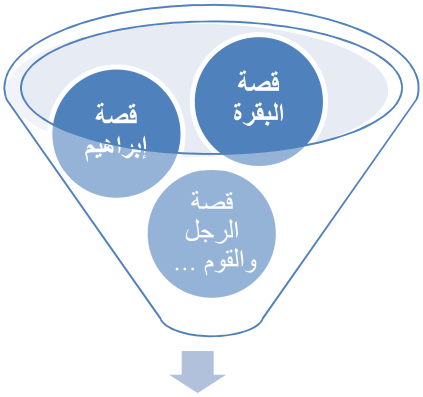

الإحياء والإماتة

وسنحاول في هذا المخطط تبيان التوافق العظيم بين جميع مقاطع سورة البقرة استلهاما من تفسير سيد قطب:

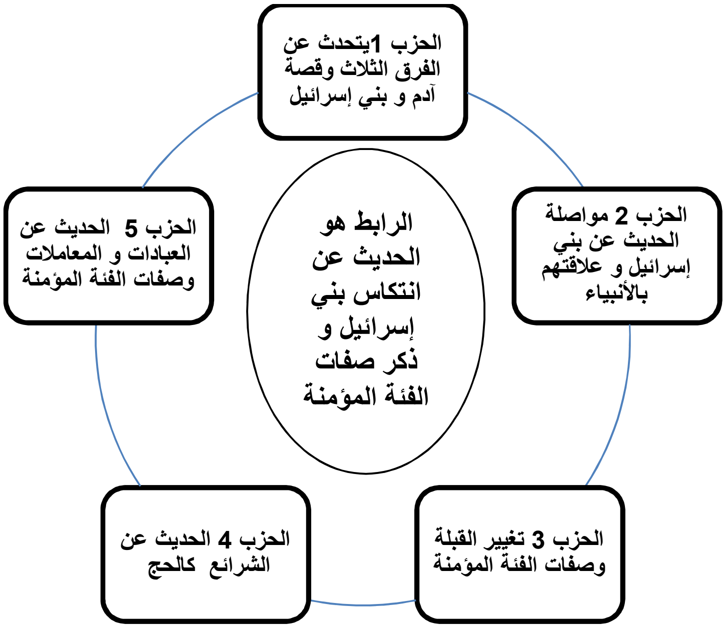

والجدول التالي يلخص، ما سبق ذكره، من أوجه التناسب بين الفاتحة والبقرة:

البقرة	الفاتحة
الآيات ١٥٢-١٨٦-٢٨٦	الحمد لله
الآيات ٢١-٢٢-٢٩-وقصة آدم عليه السلام	رب العالمين
الآيات ٥٤-١٢٦-٥٢-١٦٣-٢٨٦	الرحمن الرحيم
الآية ٢٨٤	ملك يوم الدين
جميع فروع العبادة وردت في البقرة:"الطهارة، الحيض، الصوم، الحج...	إياك نعبد
جميع علم الآخلاق، التوبة،الصبر، الرضا...	و إياك نستعين
الآيات ١٤٢-١٤٥-١٣٧.	اهدنا الصراط المستقيم
١٣٦-١٣٧-مع التفصيل في ذكر الأنبياء.	صراط الذين أنعمت عليهم
قصة بني إسرائيل	غير المغضوب عليهم
في ذكر النصارى	ولا الضالين

الاتساق في سورة البقرة

لقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، قال تعالى في بداية سورة البقرة: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن

مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾"[٦٢]

ودعاهم لأن يتأملوه "سورة سورة، وعشرا عشرا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما"[٦٣].

فما سر هذا الاتساق والنظام ؟

يرتكز الاتساق، من خلال الملاحظة، المتأنية في سورة البقرة على عدة وسائل ومظاهر لغوية محددة تنسج البنى الخارجية بكل علاقاتها ووظائفها. نذكر من بين هذه الوسائل: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل والاتساق المعجمي.

---

[٦٢]–سورة البقرة/ ٢٣-٢٤.

[٦٣]–دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص ٧٩.

الإحالة : فإن النّصّ القرآني خطابٌ متعدّد الجوانب، ونصّ متماسك ومتجانس، ويتضمن أدوات إحالية تقوم بوظيفة الإحالة، منها أدوات الإحالة الدّاخلية ومنها آليات الإحالة الخارجية: فأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان والضمائر وأسماء الموصول وأزمنة الأفعال، وكل الأدلة التعيينية والوصفية والإشارية تعمل على ربط الخطاب القرآني بالواقع الزماني والمكاني الذي أحاط بنزوله باعتباره خطابا[٦٤].

والقرآن الكريم باعتبارِه نصا فإنه يتضمن شروطَ نصيته، واكتماله ووحدته، ومعالم بنيته ونظامه، فيتم التركيز عليه في ذاته، ليتحقق تأويله انطلاقاً من داخله، وعبر قراءته.

فالضمائر من بين الوسائل التي تحقق التماسك الداخلي والخارجي للنص ؛ وعندما نتأمل الآيات التالية من سورة البقرة:

١-(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾).[٦٥]

٢-(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾).[٦٦]

---

[٦٤]-ينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، المرجع السابق، ص ١٦٤.

[٦٥]-سورة البقرة/ ٣٠

[٦٦]-سورة البقرة/ ٢٤٦.

نلاحظ بأن هذه الإحالة الداخلية تحققت في الضميرين (أنا وأنت) في الإطار المحدود الذي يتعلق بتقاطع مقاطع سردية مع مقاطع حوارية وتكون وظيفة هذه المقاطع السردية التداخل أو التمهيد.

والأمثلة على ذلك كثيرة ؛لكن البحث همه في هذا المقام الإشارة لكي لا يطول بنا المقام.

الخاتمة:

الحقيقة إن نصوص القرآن الكريم تعالج من جهة كون القرآن كله وحدة بنائية بكل سوره و آياته و أجزائه و أحزابه و كلماته،كالجملة الواحدة أو البناء المحكم الذي يمتنع اختراقه لمتانته و قوته[٦٧]،و لا يقبل بناؤه و إحكام آياته التعدد فيه او التجزئة في آياته،ولولا هذه الوحدة البنائية لما استوعب القرآن "خبر ما بعدنا" حيث استوعب مستقبل البشرية .

و هذا المخطط يوضح ما أخبر عنه القرآن الكريم:

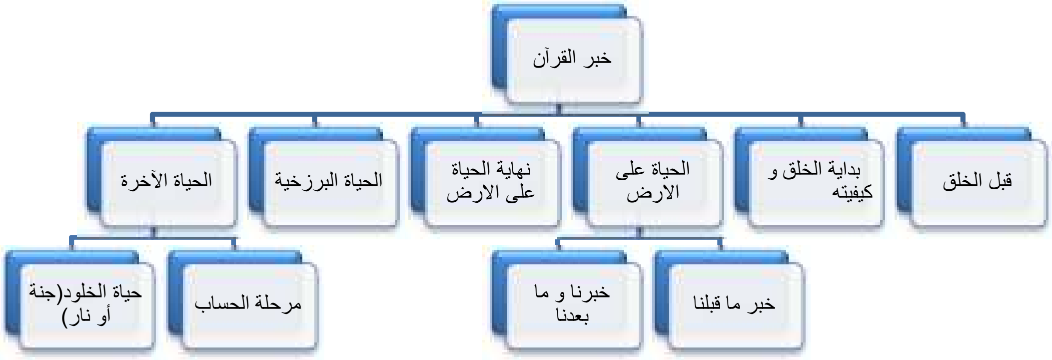

[٦٧] -ينظر:طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد،سلسلة دراسات قرآنية (٣)،مكتبة الشروق الدولية ،ط١، ١٤٢٧ه/٢٠٠٦م.

و نلاحط من خلال هذا المخطط بأن القرآن قد شمل جميع الحوات فهذا دليل واضح جلي على شموليته ووحدة بنائه حتى من حيث المعنى ،فهو لا يتحدث عن حياة دون أخرى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"[٦٨].

ولكن المفسرين بالرغم من اقتناعهم بأن القرآن يفسر بعضه بعضا لم يُؤد انشغالهم بالتفسير إلى الكشف عن الوحدة البنائية للقرآن الكريم ،و قد ذمَّ الله عز وجل المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين أي مفرقا،و آمنوا ببعض الكتاب و كفروا ببعض ، وقد كان الذم كافيا للدفع إلى اكتشاف منهج للقراءة الواحدة غير المجزئة لاكتشاف الوحدة البنائية.

يلاحظ مما سبق، على أن النص القرآني زاخر بالنماذج الكثيرة، التي ذكرها المفسرون في كتبهم، التي تبرز أسبقيتهم في تبيان أدوات الاتساق والانسجام في النص القرآني بصفة عامة وفي سورة البقرة بصفة خاصة. وما اخترناه من أمثلة يعتبر قليل مما هو مبثوث في كتب التفسير.

---

[٦٨] -سورة القصص: الآية ٧٧.